- ٧ -

نزول القـــرآن

أنزل الله القرآن على رسولنا محمد ﷺ لهداية البشرية ، فكان نزوله حدثًا جللاً يؤذن بمكانته لدى أهل السماء وأهل الأرض ، فإنزاله الأول فى ليلة القدر أشعر العالم العُلوى من ملائكة الله بشرف الأمة المحمدية التى أكرمها الله بهذه الرسالة الجديدة لتكون خير أمة أُخرجت للناس ، وتنزيله الثانى مفرَّقًا على خلاف المعهود فى إنزال الكتب السماوية قبله آثار الدهشة التى حملت القوم على المماراة فيه ، حتى أسفر لهم صبح الحقيقة فيما وراء ذلك من أسرار الحكمة الإلَهية ، فلم يكن الرسول ﷺ ليتلقى الرسالة العظمى جملة واحدة ويقنع بها القوم مع ما هم عليه من صَلَف وعنَاد ، فكان الوحى يتنزَّل عليه تباعًا تثبيتًا لقلبه ، وتسلية له ، وتدرجًا مع الأحداث والوقائع حتى أكمل الله الدين ، وأتم النعمة .

* * *

نزول القرآن جملة

يقول الله تعالى فى كتابه العزيز : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ القُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الهُدَى وَالفُرْقَانِ ﴾ (١) .

ويقول : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ القَدْرِ ﴾ (٢) .

ويقول : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ (٣) .

ولا تعارض بين هذه الآيات الثلاث ، فاللَّيلة المباركة هى ليلة القدر من شهر رمضان ، إنما يتعارض ظاهرها مع الواقع العملى فى حياة رسول الله ﷺ ، حيث نزل القرآن عليه فى ثلاث وعشرين سنة . . وللعلماء فى هذا مذهبان أساسيان :

---

(١) البقرة : ١٨٥ (٢) القدر : ١ (٣) الدخان : ٣

١ - **المذهب الأول** : وهو الذى قال به ابن عباس وجماعة وعليه جمهور العلماء- أن المراد بنزول القرآن فى تلك الآيات الثلاث نزوله جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا تعظيمًا لشأنه عند ملائكته ، ثم نزل بعد ذلك مُنَجَّمًا على رسولنا محمد ﷺ فى ثلاث وعشرين سنة (١) حسب الوقائع والأحداث منذ بعثته إلى أن توفى صلوات الله وسلامه عليه ، حيث أقام فى مكة بعد البعثة ثلاث عشرة سنة ، وبالمدينة بعد الهجرة عشر سنوات : فعن ابن عباس قال : « بُعِثَ رسول الله ﷺ لأربعين سنة ، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يُوحَى إليه ، ثم أُمِرَ بالهجرة عشر سنين ، ومات وهو ابن ثلاث وستين » (٢) .

وهذا المذهب هو الذى جاءت به الأخبار الصحيحة عن ابن عباس فى عدة روايات :

(أ) عن ابن عباس قال : « أُنْزِلَ القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا ليلة القدر، ثم أُنْزِلَ بعد ذلك فى عشرين سنة ، ثم قرأ : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ (٣) .. ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾ (٤) .. .

(ب) وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « فُصِلَ القرآن من الذكر فوُضِعَ فى بيت العزة من السماء الدنيا ، فجعل جبريل ينزل به على النبى ﷺ » (٥) .

(جـ) وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « أُنْزِلَ القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا ، وكان بمواقع النجوم ، وكان الله ينزله على رسوله ﷺ بعضه فى إثر بعض » (٦) .

---

(١) وقدَّر بعض العلماء مدة نزول القرآن بعشرين سنة ، وبعضهم بخمس وعشرين سنة لاختلافهم فى مدة إقامته ﷺ - بعد البعثة - بمكة ، أكانت ثلاث عشرة سنة ، أم عشر سنين، أم خمس عشرة سنة ؟ مع اتفاقهم على أن إقامته بالمدينة بعد الهجرة عشر سنوات - والصواب الأول - انظر « الإتقان » (١/ ٣٩) .

(٢) رواه البخارى .

(٣) الفرقان : ٣٣

(٤) رواه الحاكم والبيهقى والنسائى - (والآية من سورة الإسراء : ١٠٦) .

(٥) رواه الحاكم .

(٦) رواه الحاكم والبيهقى .

(د) وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « أُنْزِلَ القرآن فى ليلة القدر فى شهر رمضان إلى سماء الدنيا جملة واحدة ، ثم أُنْزِلَ نُجومًا » (١) .

٢ - **المذهب الثانى** : وهو الذى رُوِىَ عن الشعبى (٢) - أن المراد بنزول القرآن فى الآيات الثلاث ابتداء نزوله على رسول الله ﷺ ، فقد ابتدأ نزوله فى ليلة القدر فى شهر رمضان ، وهى الليلة المباركة ، ثم تتابع نزوله بعد ذلك متدرجًا مع الوقائع والأحداث فى قرابة ثلاث وعشرين سنة ، فليس للقرآن سوى نزول واحد هو نزوله منجَّمًا على رسول الله ﷺ ، لأن هذا هو الذى جاء به القرآن : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً ﴾ (٣) وجادل فيه المشركون الذين نُقِلَ إليهم نزول الكتب السماوية السابقة جملة واحدة : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ، كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ، وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً * وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إلا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ (٤) . ولا يظهر للبشر مزية لشهر رمضان وليلة القدر التى هى الليلة المباركة إلا إذا كان المراد بالآيات الثلاث نزول القرآن على رسول الله ﷺ ، وهذا يوافق ما جاء فى قوله تعالى بغزوة بدر : ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الجَمْعَانِ ، وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٥) ، وقد كانت غزوة بدر فى رمضان ، ويؤيد هذا ما عليه المحققون فى حديث بدء الوحى ، عن عائشة قالت : « أول ما بُدِئَ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح ، ثم حُبِّبَ إليه الخلاء فكان يأتى حِراء فيتحنث فيه اللَّيالى ذوات العدد ويتزوَّد لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة رضى الله عنها فتزوِّده لمثلها ، حتى فاجأه الحق وهو فى غار حِراء ، فجاءه المَلَكُ فيه فقال : اقرأ ، قال رسول الله ﷺ : « فقلت : ما أنا بقارئ

---

(١) رواه الطبرانى .

(٢) الشعبى : هو عامر بن شراحيل ، من كبار التابعين - وأكبر شيوخ أبى حنيفة - كان إمامًا فى الحديث والفقه ، وتوفى سنة ١٠٩ هجرية .

(٣) الإسراء : ١٠٦ (٤) الفرقان : ٣٢ - ٣٣ (٥) الأنفال : ٤١

فأخذنى فغَطَّنى حتى بلغ منى الجَهْد ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ، فَغَطَّنى الثانية حتى بلغ منى الجَهْد ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ، فغَطَّنى الثالثة حتى بلغ منى الجَهْدَ ثم أرسلنى فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾ . . حتى بلغ : ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [1] » فإن المحققين من الشرَّاح على أنَ الرسول ﷺ نُبِئَ أولاً بالرؤيا فى شهر مولده شهر ربيع الأول ، ثم كانت مدتها ستة أشهر ، ثم أُوحِىَ إليه يقظة فى شهر رمضان بـ « اقرأ » وبهذا تتآزر النصوص على معنى واحد .

٣- **وهناك مذهب ثالث** : يرى أن القرآن أُنْزِلَ إلى السماء الدنيا فى ثلاث وعشرين ليلة قدر [2] فى كل ليلة منها ما يُقَدِّر الله إنزاله فى كل السنة ، وهذا القدر الذى ينزل فى ليلة القدر إلى السماء الدنيا لسنة كاملة ينزل بعد ذلك مُنجَّمًا على رسول الله ﷺ فى جميع السنة .

وهذا المذهب اجتهاد من بعض المفسرين ، ولا دليل عليه .

أما المذهب الثانى الذى رُوِىَ عن الشعبى فأدلته - مع صحتها والتسليم بها - لا تتعارض مع المذهب الأول الذى رُوِىَ عن ابن عباس ، فيكون نزول القرآن جملة وابتداء نزوله مفرقًا فى ليلة القدر من شهر رمضان ، وهى اللَّيلة المباركة .

فالراجح أن القرآن الكريم له تنزلان :

الأول : نزوله جملة واحدة فى ليلة القدر إلى بيت العزة من السماء الدنيا .

والثانى : نزوله من السماء الدنيا إلى الأرض مفرَّقًا فى ثلاث وعشرين سنة .

وقد نقل القرطبى عن مقاتل بن حيان حكاية الإجماع على نزول القرآن جملة واحدة من اللَّوح المحفوظ إلى بيت العزة فى السماء الدنيا ، ونفى ابن عباس التعارض بين الآيات الثلاث فى نزول القرآن والواقع العملى فى حياة الرسول ﷺ بنزول القرآن فى ثلاث وعشرين سنة بغير شهر رمضان : عن ابن عباس : « أنه سأله

---

(١) رواه البخارى ومسلم وغيرهما - (والآيات من سورة العلق : ١ - ٥) .

(٢) أو عشرين ، أو خمس وعشرين ليلة قدر ، بناء على الخلاف السابق فى مدة إقامته بمكة .

عطية بن الأسود فقال : أوقع فى قلبى الشك قوله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ القُرْآنُ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ القَدْرِ ﴾ (٢) ، وهذا أُنزل فى شوَّال ، وفى ذى القعدة ، وفى ذى الحجة ، وفى المحرَّم ، وصفر وشهر ربيع ، فقال ابن عباس : إنه أُنزل فى رمضان فى ليلة القدر جملة واحدة ثم أُنزل على مواقع النجوم (٣) رَسْلاً (٤) فى الشهور والأيام » (٥)

وأشار بعض العلماء إلى حكمة ذلك فى تعظيم شأن القرآن ، وتشريف المُنَزَّل عليه ، قال السيوطى : « قيل : السر فى إنزاله جملة إلى السماء تفخيم أمره وأمر مَن نزل عليه ، وذلك بإعلام سكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب المنزَّلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم قد قرَّبناه إليهم لينزله عليهم ، ولو أن الحكمة الإلهية اقتضت وصوله إليهم مُنَجَّما بحسب الوقائع لهبط به إلى الأرض جملة كسائر الكتب المنزَّلة قبله ، ولكن الله باين بينه وبينها ، فجعل له الأمرين : إنزاله جملة ، ثم إنزاله مفرَّقًا ، تشريفاً للمُنَزَّل عليه » ، وقال السخاوى فى جمال القراء : « فى نزوله إلى السماء جملة تكريم بنى آدم وتعظيم شأنه عند الملائكة وتعريفهم عناية الله بهم ، ورحمته لهم ، ولهذا المعنى أمر سبعين ألفًا من الملائكة أن تُشيِّع سورة الأنعام (٦) ، وزاد سبحانه فى هذا المعنى بأن أمر جبريل بإملائه على السَفَرَة الكرام، وإنساخهم إياه ، وتلاوتهم له » (٧) .

٤ - ومن العلماء مَن يرى أن القرآن نزل أولاً جملة إلى اللَّوح المحفوظ مستدلاً

---

(١) البقرة : ١٨٥ (٢) القدر : ١

(٣) على مواقع النجوم : أى على مثل مساقطها فى نزوله مفرقًا يتلو بعضه بعضًا .

(٤) رَسْلاً : أى على تؤدة ورفق .

(٥) أخرجه ابن مردويه والبيهقى فى الأسماء والصفات .

(٦) المشيَّع من القرآن : ما نزل منه محفوفًا بالملائكة ، أخرج الطبرانى وأبو عبيد فى فضائل القرآن ، عن ابن عباس قال : « نزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملة حولها سبعون ألف مَلَك يجأرون بالتسبيح » .

(٧) انظر : « الإتقان » (١/ ٤٠ - ٤١) .

بقوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ (١) .. ثم نزل من اللَّوح المحفوظ جملة كذلك إلى بيت العزة ، ثم نزل مفرَّقًا ، فهذه تنزلات ثلاثة .

وهذا لا يتعارض مع ما سبق أن رجحناه ، فالقرآن الكريم مثبت فى اللَّوح المحفوظ شأن سائر المغيَّبات المثبتة فيه ، والقرآن الكريم نزل جملة من اللَّوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا - كما رُوِىَ عن ابن عباس - فى ليلة القدر ، والقرآن الكريم بدأ نزوله مُنجَّمًا - كما يرى الشعبى - على رسول الله ﷺ فى الليلة المباركة ليلة القدر من شهر رمضان ، إذ لا مانع يمنع من نزوله جملة ، ومن ابتداء نزوله على رسول الله ﷺ مفرَّقًا فى ليلة واحدة ، وبهذا ينتفى التعارض بين الأقوال كلها إذا استثنينا المذهب الاجتهادى الثالث الذى لا دليل له .

* * *

نزول القرآن مُنَجَّمًا

يقول الله تعالى فى التنزيل : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ (٢) .

ويقول : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (٣) .

ويقول : ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ (٤) .

ويقول : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ (٥) .

ويقول : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٦) .

فهذه الآيات ناطقة بأن القرآن الكريم كلام الله بألفاظه العربية ، وأن جبريل نزل به

---

(١) البروج : ٢١ - ٢٢ (٢) الشعراء : ١٩٢ - ١٩٥ (٣) النحل : ١٠٢
(٤) الجاثية : ٢ (٥) البقرة : ٢٣ (٦) البقرة : ٩٧

على قلب رسول الله ﷺ ، وأن هذا النزول غير النزول الأول إلى سماء الدنيا فالمراد به نزوله مُنجَّمًا ، ويدل التعبير بلفظ التنزيل دون الإنزال على أن المقصود النزول على سبيل التدرج والتنجيم ، فإن علماء اللُّغة يُفَرِّقون بين الإنزال والتنزيل ، فالتنزيل لما نزل مفرَّقًا ، والإنزال أعم (١) .

وقد نزل القرآن مُنجَّمًا فى ثلاث وعشرين سنة منها ثلاث عشرة بمكة على الرأى الراجح ، وعشر بالمدينة ، وجاء التصريح بنزوله مفرَّقًا فى قوله تعالى : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ﴾ (٢) أى جعلنا نزوله مفرَّقًا كى تقرأه على الناس على مهل وتثبت ، ونزَّلناه تنزيلاً بحسب الوقائع والأحداث .

أما الكتب السماوية الأخرى - كالتوراة والإنجيل والزبور - فكان نزولها جملة ، ولم تنزل مفرَّقة ، يدل على هذا قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ، كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ، وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ (٣) فهذه الآية دليل على أن الكتب السماوية السابقة نزلت جملة ، وهو ما عليه جمهور العلماء ، ولو كان نزولها مفرَّقًا لما كان هناك ما يدعو الكفار إلى التعجب من نزول القرآن مُنجَّمًا ، فمعنى قولهم : ﴿ لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ : هَلا أنزل عليه القرآن دفعة واحدة كسائر الكتب ؟ وماله أُنزل على التنجيم ؟ ولِمَ أُنزل مفرَّقًا ؟ ولم يرد الله عليهم بأن هذه سُنَّته فى إنزال الكتب السماوية كلها كما رد عليهم فى قولهم : ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ ﴾ (٤) بقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ ﴾ (٥) ، وكما رد عليهم فى قولهم : ﴿ أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَسُولاً ﴾ (٦) بقوله : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً ﴾ (٧) وقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلا رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ (٨) بل أجابهم الله تعالى ببيان وجه الحكمة فى تنزيل القرآن مُنجَّمًا بقوله :

---

(١) انظر : « مفردات الراغب » .
(٢) الإسراء : ١٠٦
(٣) الفرقان : ٣٢
(٤) الفرقان : ٧
(٥) الفرقان : ٢٠
(٦) الإسراء : ٩٤
(٧) الإسراء : ٩٥
(٨) الأنبياء : ٧

﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ أى كذلك أنزل مفرَّقًا لحكمة هى تقوية قلب رسول الله ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ أى قدَّرناه آية بعد آية بعضه إثر بعض ، أو بيَّناه تبيينًا ، فإن إنزاله مفرَّقًا حسب الحوادث أقرب إلى الحفظ والفهم وذلك من أعظم أسباب التثبيت.

والذى استقرئ من الأحاديث الصحيحة أن القرآن كان ينزل بحسب الحاجة خمس آيات وعشر آيات وأكثر وأقل ، وقد صح نزول العشر آيات فى قصة الإفك جملة ، وصح نزول عشر آيات فى أول المؤمنين جملة ، وصح نزول : ﴿ غَيْرُ أُوْلِى الضَّرَرِ ﴾ وحدها وهى بعض آية » (١) .

* * *

حكمة نزول القرآن مُنَجَّمًا

نستطيع أن نستخلص حكمة نزول القرآن الكريم مُنجَّمًا من النصوص الواردة فى ذلك ، ونُجملها فيما يأتى :

١ - الحكمة الأولى - تثبيت فؤاد رسول الله ﷺ :

لقد وجَّه رسول الله ﷺ دعوته إلى الناس ، فوجد منهم نفوراً وقسوة ، وتصدَّى له قوم غلاظ الأكباد فُطِروا على الجفوة ، وجُبلوا على العناد ، يتعرضون له بصنوف الأذى والعنت ، مع رغبته الصادقة فى إبلاغهم الخير الذى يحمله إليهم ، حتى قال الله فيه : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ (٢) ، فكان الوحى يتنزل على رسول الله ﷺ فترة بعد فترة ، بما يُثبِّت قلبه على الحق ، ويُشحذ عزمه للمضى قُدمًا فى طريق دعوته ، لا يبالى بظلمات الجهالة التى يواجهها من قومه ، فإنها سحابة صيف عما قريب تقشع .

يُبيِّن الله له سُنَّته فى الأنبياء السابقين الذين كُذِّبوا وأُوذوا فصبروا حتى جاءهم نصر

---

(١) نقل هذا السيوطى عن « مكى بن أبى طالب » ، المتوفى سنة ٣٦٧ هجرية ، فى كتاب له يسمى « الناسخ والمنسوخ » - انظر « الإتقان » (١/٤٢) - (والآية من سورة النساء : ٩٥) .

(٢) الكهف : ٦

الله ، وأن قومه لم يُكذِّبوه إلا علوًا واستكبارًا ، فيجد عليه الصلاة والسلام فى ذلك السُّنَّة الإلهية فى موكب النبوَّة عبر التاريخ التى يتأسى بها تسلية له إزاء أذى قومه ، وتكذيبهم له ، وإعراضهم عنه ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ ، فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ * وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ﴾ (١) ، ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالكِتَابِ المُنِيرِ ﴾ (٢) .

ويأمره القرآن بالصبر كما صبر الرسل من قبله : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ (٣) . .

ويطمئن نفسه بما تكفَّل الله به من كفايته أمر المكذِّبين : ﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً * وَذَرْنِى وَالمُكَذِّبِينَ أُوْلِى النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ﴾ (٤) . .

وهذا هو ما جاء فى حكمة قصص الأنبياء بالقرآن : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ (٥) . .

وكلما اشتد ألم رسول الله ﷺ لتكذيب قومه ، وداخله الحزن لأذاهم نزل القرآن دعمًا وتسلية له ، يهدد المكذِّبين بأن الله يعلم أحوالهم ، وسيجازيهم على ما كان منهم : ﴿ فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ ، إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ (٦) ، ﴿ وَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ ، إِنَّ العِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ، هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾ (٧) .

كما يبشره الله تعالى بآيات المنعة والغلبة والنصر : ﴿ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ (٨) ، ﴿ وَيَنصُرَكَ اللهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ (٩) ، ﴿ كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِى ، إِنَّ اللهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ (١٠) .

---

(١) الأنعام : ٣٣ - ٣٤
(٢) آل عمران : ١٨٤
(٣) الأحقاف : ٣٥
(٤) المزمل : ١٠ - ١١
(٥) هود : ١٢٠
(٦) يس : ٧٦
(٧) يونس : ٦٥
(٨) المائدة : ٦٧
(٩) الفتح : ٣
(١٠) المجادلة : ٢١

وهكذا كانت آيات القرآن تتنزل على رسول الله ﷺ تباعًا تسلية له بعد تسلية ، وعزاء بعد عزاء ، حتى لا يأخذ منه الحزن مأخذه ولا يستبد به الأسى ، ولا يجد اليأس إلى نفسه سبيلاً ، فله فى قصص الأنبياء أُسوة ، وفى مصير المكذِّبين سلوى ، وفى العدة بالنصر بُشرى ، وكلما عرض له شىء من الحزن بمقتضى الطبع البَشرى تكررت التسلية ، فثبت قلبه على دعوته ، واطمأن إلى النصر .

وهذه الحكمة هى التى رد الله بها على اعتراض الكفار فى تنجيم القرآن بقوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ، وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ (١) .

قال أبو شامة (٢) : « فإن قيل : ما السر فى نزوله مُنجَّمًا ؟ وهل أنزل كسائر الكتب جملة ؟ قلنا : هذا سؤال قد تولى الله جوابه ، فقال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ (٣) . . يعنون : كما أنزل على مَن قبله من الرسل ، فأجابهم تعالى بقوله : ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أى أنزلناه مفرَّقًا ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ أى لنقوِّى به قلبك ، فإن الوحى إذا كان يتجدد فى كل حادثة كان أقوى للقلب ، وأشد عناية بالمرسَل إليه ، ويستلزم ذلك كثرة نزول المَلَك إليه ، وتجدد العهد به وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجناب العزيز ، فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة ، ولهذا كان أجود ما يكون فى رمضان لكثرة لقياه جبريل » (٤) .

٢ - الحكمة الثانية - التحدى والإعجاز :

فالمشركون تمادوا فى غيهم ، وبالغوا فى عُتوِّهم ، وكانوا يسألون أسئلة تعجيز وتحد يمتحنون بها رسول الله ﷺ فى نبوَّته ، ويسوقون له من ذلك كل عجيب من باطلهم ، كعلم الساعة : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ ﴾ (٥) ، واستعجال العذاب :

---

(١) الفرقان : ٣٢

(٢) أبو شامة : هو عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى ، الفقيه الشافعى ، له « الوجيز إلى علوم تتعلق بالقرآن العزيز » ، و« شرح على الشاطبية » المشهورة فى القراءات ، توفى سنة ٦٦٥ هجرية .

(٣) الفرقان : ٣٢ (٤) انظر « الإتقان » (١/ ٤١) . (٥) الأعراف : ١٨٧

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾ (١) فيتنزل القرآن بما يبيِّن وجه الحق لهم ، وبما هو أوضح معنى فى مؤدى أسئلتهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ (٢) أى ولا يأتونك بسؤال عجيب من أسئلتهم الباطلة إلا أتيناك نحن بالجواب الحق ، وبما هو أحسن معنى من تلك الأسئلة التى هى مثل فى البطلان .

وحيث عجبوا من نزول القرآن مُنجَّمًا بيَّن الله لهم الحق فى ذلك ، فإن تحديهم به مفرَّقًا مع عجزهم عن الإتيان بمثله أدخل فى الإعجاز ، وأبلغ فى الحجة من أن ينزل جملة ويقال لهم : جيئوا بمثله ، ولهذا جاءت الآية عقب اعتراضهم : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ أى لا يأتونك بصفة عجيبة يطلبونها كنزول القرآن جملة إلا أعطيناك من الأحوال ما يحق لك فى حكمتنا وبما هو أبين معنى فى إعجازهم ، وذلك بنزوله مفرَّقًا ، ويشير إلى هذه الحكمة ما جاء ببعض الروايات فى حديث ابن عباس عن نزول القرآن : « فكان المشركون إذا أحدثوا شيئاً أحدث الله لهم جوابًا » (٣) .

٣ – الحكمة الثالثة – تيسير حفظه وفهمه :

لقد نزل القرآن الكريم على أمة أمية لا تعرف القراءة والكتابة ، سجلها ذاكرة حافظة ، ليس لها دراية بالكتابة والتدوين حتى تكتب وتدوِّن ، ثم تحفظ وتفهم : ﴿ هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٤) ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِىَّ الْأُمِّىَّ ﴾ (٥) فما كان للأمة الأمية أن تحفظ القرآن كله بيسر لو نزل جملة واحدة ، وأن تفهم معانيه وتتدبر آياته ، فكان نزوله مفرَّقًا خير عون لها على حفظه فى صدورها وفهم آياته ، كلما نزلت الآية أو الآيات حفظها الصحابة ،

---

(١) الحج : ٤٧ (٢) الفرقان : ٣٣

(٣) أخرجه ابن أبى حاتم ، عن ابن عباس . (٤) الجمعة : ٢

(٥) الأعراف : ١٥٧

وتدبروا معانيها ، ووقفوا عند أحكامها ، واستمر هذا منهجًا للتعليم فى حياة التابعين ، عن أبى نضرة قال : « كان أبو سعيد الخدرى يعلِّمنا القرآن خمس آيات بالغَداة ، وخمس آيات بالعَشى ، ويُخبر أن جبريل نزل بالقرآن خمس آيات خمس آيات » (١) ، وعن خالد بن دينار قال : « قال لنا أبو العالية : تعلَّموا القرآن خمس آيات خمس آيات ، فإن النبى ﷺ كان يأخذه من جبريل خمسًا خمسًا » (٢) .

وعن عمر قال : « تعلَّموا القرآن خمس آيات خمس آيات ، فإن جبريل كان ينزل بالقرآن على النبى ﷺ خمسًا خمسًا » (٣) .

٤ - الحكمة الرابعة - مسايرة الحوادث والتدرج فى التشريع :

فما كان الناس ليسلس قيادهم طفرة للدين الجديد لولا أن القرآن عالجهم بحكمه ، وأعطاهم من دوائه الناجع جرعات يستطبون بها من الفساد والرذيلة ، وكلما حدثت حادثة بينهم نزل الحكم فيها يُجَلّى لهم صبحها ويرشدهم إلى الهُدى ، ويضع لهم أُصول التشريع حسب المقتضيات أصلاً بعد آخر فكان هذا طبا لقلوبهم .

لقد كان القرآن الكريم بادئ ذى بدء يتناول أصول الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وجزاء وجنة ونار ، ويقيم على ذلك الحجج والبراهين حتى يستأصل من نفوس المشركين العقائد الوثنية ويغرس فيها عقيدة الإسلام .

وكان يأمر بمحاسن الأخلاق التى تزكو بها النفس ويستقيم عوجها ، وينهى عن الفحشاء والمنكر ليقتلع جذور الفساد والشر ، ويبيِّن قواعد الحلال والحرام التى يقوم عليها صرح الدين ، وترسو دعائمه فى المطاعم والمشارب والأموال والأعراض والدماء .

ثم تدرَّج التشريع بالأمة فى علاج ما تأصل فى النفوس من أمراض اجتماعية ،

---

(١) أخرجه ابن عساكر .
(٢) أخرجه البيهقى .
(٣) أخرجه البيهقى فى « شعب الإيمان » .

بعد أن شرع لهم من فرائض الدين وأركان الإسلام ما يجعل قلوبهم عامرة بالإيمان ، خالصة لله ، تعبده وحده لا شريك له .

كما كان القرآن يتنزل وفق الحوادث التى تمر بالمسلمين فى جهادهم الطويل لإعلاء كلمة الله .

ولهذا كله أدلته من نصوص القرآن الكريم إذا تتبعنا مكيه ومدنيه وقواعد تشريعه .

ففى مكة شُرِعَت الصلاة ، وشُرِعَ الأصل العام للزكاة مقارنًا بالربا : ﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِى أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِندَ اللهِ ، وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ (١) .

ونزلت سورة الأنعام - وهى مكية - تبيِّن أصول الإيمان ، وأدلة التوحيد ، وتندِّد بالشرك والمشركين ، وتوضِّح ما يحل وما يحرم من المطاعم ، وتدعو إلى صيانة حرمات الأموال والدماء والأعراض : ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ، أَلا تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، وَلا تَقْتُلُواْ أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ ، نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ، وَلَا تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَلا تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلا تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ، لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ، وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُواْ ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٢) .

ثم نزل بعد ذلك تفصيل هذه الأحكام .

فأصول المعاملات المدنية نزلت بمكة ، ولكن تفصيل أحكامها نزل بالمدينة كآية المداينة وآيات تحريم الربا .

وأسس العلاقات الأُسرية نزلت بمكة ، أما بيان حقوق كل من الزوجين ،

---

(١) الروم : ٣٨ - ٣٩ (٢) الأنعام : ١٥١ - ١٥٢

وواجبات الحياة الزوجية ، وما يترتب على ذلك من استمرار العشرة أو انفصامها بالطلاق ، أو انتهائها بالموت ثم الإرث - أما بيان هذا فقد جاء فى التشريع المدنى .

وأصل الزنا حُرِّم بمكة : ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ الزِّنَى ، إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾ (١) ولكن العقوبات المترتبة عليه نزلت بالمدينة .

وأصل حُرمة الدماء نزل بمكة : ﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ (٢) ولكن تفصيل عقوباتها فى الاعتداء على النفس والأطراف نزل بالمدينة .

وأوضح مثال لذلك التدرج فى التشريع : تحريم الخمر .

فقد نزل قوله تعالى : ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٣) فى مقام الامتنان بنعمه سبحانه - وإذا كان المراد بالسكر ما يُسكِر من الخمر ، وبالرزق ما يؤكل من هاتين الشجرتين كالتمر والزبيب - وهذا ما عليه جمهور المفسرين - فإن وصف الرزق بأنه حسن دون وصف السُكر يُشعر بمدح الرزق والثناء عليه وحده دون السُكر .

ثم نزل قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ (٤) فقارنت الآية بين منافع الخمر فيما يصدر عن شربها من طرب ونشوة أو يترتب على الاتجار بها من ربح ، ومضارها فى إثم تعاطيها وما ينشأ عنه من ضرر فى الجسم ، وفساد فى العقل ، وضياع للمال وإثارة لبواعث الفجور والعصيان ، ونفَّرت الآية منها بترجيح المضار على المنافع .

ثم نزل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لا تَقْرَبُواْ الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى ﴾ (٥) فاقتضى هذا الامتناع عن شرب الخمر فى الأوقات التى يستمر تأثيرها إلى وقت الصلاة ، حيث جاء النهى عن قربان الصلاة فى حال السُكر حتى يزول عنهم أثره ويعلموا ما يقولونه فى صلاتهم .

ثم نزل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ

---

(١) الإسراء : ٣٢ (٢) الإسراء : ٣٣ (٣) النحل : ٦٧
(٤) البقرة : ٢١٩ (٥) النساء : ٤٣

وَالأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ فِى الخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ، فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ (١) فكان هذا تحريمًا قاطعًا للخمر فى الأوقات كلها :

ويوضح هذه الحكمة ما رُوِىَ عن عائشة رضى الله عنها قالت : إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المُفصَّل فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شىء : « لا تشربوا الخمر » لقالوا : لا ندع الخمر أبدًا ، ولو نزل : « لا تزنوا » لقالوا : لا ندع الزنا أبدًا » (٢) .

وهكذا كان التدرج فى تربية الأمة وفق ما يمر بها من أحداث ، فقد استشار رسول الله ﷺ صحابته فى أسرى بدر ، فقال عمر : اضرب أعناقهم ، وقال أبو بكر : أرى أن تعفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء ، وأخذ رسول الله ﷺ برأى أبى بكر ، فنزل قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِى الأَرْضِ ، تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ ، وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٣) .

وأعجب المسلمون بكثرتهم يوم حنين حتى قال رجل : لن نُغْلَب من قلة ، فتلقوا درسًا قاسيًا فى ذلك ، ونزل قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ، وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ، إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٤) .

---

(١) المائدة : ٩٠ - ٩١ (٢) أخرجه البخارى .

(٣) من حديث أخرجه أحمد عن أنس - (والآيتان من سورة الأنفال : ٦٧ - ٦٨) .

(٤) أخرجه البيهقى فى « الدلائل » - (والآيات من سورة التوبة : ٢٥ - ٢٧) .

ولما توفى عبد الله بن أُبَىّ - رأس المنافقين - « دُعِىَ رسول الله ﷺ للصلاة عليه، فقام عليه ، فلما وقف قال عمر : أعلى عدو الله عبد الله بن أُبَىّ القائل كذا وكذا ، والقائل كذا وكذا ؟ يُعَدِّد أيامه ، ورسول الله ﷺ يبتسم ، ثم قال له : « إنى قد خُيِّرتُ ، قد قيل لى : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ﴾ (١) فلو أعلم أنى إن زدت على السبعين غُفِرَ له لزدت عليها » ثم صلى عليه رسول الله ﷺ ، ومشى معه حتى قام على قبره حتى فُرِغَ منه ، قال عمر : فعجبت لى ولجرأتى على رسول الله ﷺ ، والله ورسوله أعلم ، فوالله ما كان إلا يسيرًا حتى نزلت هاتان الآيتان : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ، إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ * وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ فما صلى رسول الله ﷺ على منافق بعد حتى قبضه الله عز وجل » (٢) .

وحين تخلَّف نفر من المؤمنين الصادقين فى غزوة تبوك ، وأقاموا بالمدينة ، ولم يجد رسول الله ﷺ لديهم عذرًا هجرهم وقاطعهم حتى ضاقوا ذرعًا بالحياة ثم نزل القرآن لقبول توبتهم : ﴿ لَّقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِىِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ، إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ ، إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٣) ، ويشير إلى هذا

---

(١) التوبة : ٨٠

(٢) أخرجه البخارى وأحمد والنسائى والترمذى وابن ماجه وغيرهم ، (والآيتان من سورة التوبة : ٨٤ - ٨٥) .

(٣) من حديث طويل أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما ، والثلاثة هم : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ، وكلهم من الأنصار (والآيتان من سورة التوبة : ١١٧ - ١١٨) .

ما رُوِىَ عن ابن عباس فى نزول القرآن : « ونزَّله جبريل بجواب كلام العباد وأعمالهم » (١) .

٥ - الحكمة الخامسة - الدلالة القاطعة على أن القرآن الكريم تنزيل من حكيم حميد :

إن هذا القرآن الذى نزل مُنجَّمًا على رسول الله ﷺ فى أكثر من عشرين عاما تنزل الآية أو الآيات على فترات من الزمن يقرؤه الإنسان ويتلو سوره فيجده محكم النسج ، دقيق السبك ، مترابط المعانى ، رصين الأسلوب ، متناسق الآيات والسور ، كأنه عقد فريد نظمت حبَّاته بما لم يُعْهَد له مثيل فى كلام البشر : ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (٢) . ولو كان هذا القرآن من كلام البَشر قيل فى مناسبات متعددة ، ووقائع متتالية ، وأحداث متعاقبة ، لوقع فيه التفكك والانفصام ، واستعصى أن يكون بينه التوافق والانسجام : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (٣) .

فأحاديث رسول الله ﷺ - وهى فى ذروة الفصاحة والبلاغة بعد القرآن الكريم - لا تنتظم حباتها فى كتاب واحد سلس العبارة يأخذ بعضه برقاب بعض فى وحدة وترابط بمثل ما عليه القرآن الكريم أو ما يدانيه اتساقًا وانسجامًا . فكيف بكلام سائر البَشر وأحاديثهم : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ والجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ولَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (٤) .

* * *

(١) أخرجه الطبرانى والبزار عن ابن عباس ، وأخرجه ابن أبى حاتم من وجه آخر .

(٢) هود : ١ (٣) النساء : ٨٢

(٤) انظر هذه الحكمة فى « مناهل العرفان » للزرقانى (١/٥٤) - (والآية من سورة الإسراء : ٨٨) .

الاستفادة من نزول القرآن مُنَجَّمًا فى التربية والتعليم

تعتمد العملية التعليمية على أمرين أساسيين : مراعاة المستوى الذهنى للطلاب ، وتنمية قدراتهم العقلية والنفسية والجسمية بما يوجهها وجهة سديدة إلى الخير والرشاد .

ونحن نلحظ فى حكمة نزول القرآن مُنجَّمًا ما يفيدنا فى مراعاة هذين الأمرين على النحو الذى ذكرناه آنفًا ، فإن نزول القرآن الكريم تدرج فى تربية الأُمة الإسلامية تدرجًا فطريا لإصلاح النفس البشرية ، واستقامة سلوكها ، وبناء شخصيتها ، وتكامل كيانها ، حتى استوت على سوقها ، وآتت أكلها الطيب بإذن ربها لخير الإنسانية كافة .

وكان تنجيم القرآن خير عون لها على حفظه وفهمه ومدارسته وتدبر معانيه ، والعمل بما فيه .

وبين نزول القرآن فى مطلع الوحى بالقراءة والتعليم بأداة الكتابة : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (١) ، ونزول آيات الربا والمواريث فى نظام المال ، أو نزول آيات القتال فى المفاصلة التامة بين الإسلام والشرك - بين ذاك وهذا مراحل تربوية كثيرة لها أساليبها التى تلائم مستوى المجتمع الإسلامى فى تدرجه من الضعف إلى القوة ، ومن القوة إلى شدة البأس .

والمنهج الدراسى الذى لا يُراعَى فيه المستوى الذهنى للطلاب فى كل مرحلة من مراحل التعليم وبناء جزئيات العلوم على كلياتها والانتقال من الإجمال إلى التفصيل ، أو لا يُراعى تنمية جوانب الشخصية العقلية والنفسية والجسمية منهج فاشل لا تجنى منه الأمة ثمرة علمية سوى الجمود والتخلف .

والمدرس الذى لا يعطى طلابه القدر المناسب من المادة العلمية فيُثقل كاهلهم ويحملهم ما لا يطيقون حفظًا أو فهمًا أو يحدثهم بما لا يدركون ، أو لا يراعى

---

(١) العلق : ١ - ٥

حالهم فى علاج ما يعرض لهم من شذوذ خُلُقى ، أو يفشو من عادات سيئة ، فيقسو ويتعسف ، ويأخذ الأمر دون أناة ورويَّة ، وتدرج وحكمة - المدرس الذى يفعل ذلك مدرس فاشل كذلك ، يُحَوِّل العملية التعليمية إلى متاهات موحشة ، ويجعل غرف الدراسة قاعات منفرة .

وقِسْ على هذا الكتاب المدرسى ، فالكتاب الذى لا تنتظم موضوعاته وفصوله ، ولا تتدرج معلوماته من السهل إلى الصعب ، ولا تترتب جزئياته ترتيبًا محكمًا منسقًا ، ولا يكون أسلوبه واضحاً فى أداء المعنى المقصود ، كتاب ينفر الطالب من قراءته ، ويحرمه من الاستفادة منه .

والهَدى الإلهى فى حكمة نزول القرآن مُنجَّمًا هو الأسوة الحسنة فى صياغة مناهج التعليم ، والأخذ بأمثل الطرق فى الأساليب التربوية بقاعة الدرس ، وتأليف الكتاب المدرسى .

* * *

obeikandl.com